المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السابع والخمسين

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٢٠ — الموافق ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٨

خيال أمينتريس

في مدينة هابو

في ذلك المساء كان يستولي على مدينة هابو خشوع يأخذ النفس بسر خفي، وكان الهيكل عجيب الروعة، قد أعادت زينة الليل كل ما كان لهُ من جلال رهيب في الاعصر الخالية. وكما كان كل عمود مبتور في الغرفة ذات العماد ينطوي على حياة ناهضة

تجلت بهجة الاشراق في ساحة المعبد الواضحة البياض. وفي الايوان الاقدس على صفحات الدعائم المربعة المحدّثة تحديثاً يثير الالم كانت صور الساجدين تبدو في خشوع وإخبات بين يدي الآلهة ذات البهاء السرمدي. وكما كانت الجدران ايضاً تنبض بملامسة نسيبة سريعة، وكأن كل زهرة من ازهار اللوتس وورقة من اوراق البردي تتأرج صلاة وابتهالاً. تلك ليلة لا تنسى لذاذتها. وقد خفت العازفون الذين كانوا تحت القباب المعمّدة في غرفة المعبد الثانية يرسلون نغماً هادئاً. وخمدت تباعاً تلك المصابيح التي وضعت لوقت عند ادنى الدعائم الاوزيرية

هنالك احاطت بالقلوب روعة بالغة، وملكتنا عنو السجية سكينة فلم نكن نستطيع الجهر بالصوت مخافة أن نعتدي على ما يفيض حولنا من جلال

كان القمر يتعالى الى سمت السماء رويداً فيمحو لمعان الالوف من الانجم الزهراء. وكان الافق صافي الاهاب ساطع الضياء حتى لكنا نتبين عن بعد ما يحف بنا من النقوش والمخطوطات

لا يستطيع شيء ان يمثل بهجة الليالي القمراء في معبد مصر اول فصل الصيف . وقد كانت ليلتنا اجمل ما شهدت من الليالي

انفردت عن حجاج الهيكل الذين جاءوا للاذكار والعظة عند شعائر الاديان العتيقة ، ثم اعتمدت على قاعدة تمثال آمون وجعلت اداول التأمل بين انجم الافق والانجم التي ترصع الدعائم المربعة في معبد السماء . وتشاغل بي الفكر تجاه تلك الكواكب التي كان يهتدي الاقدمون بهديها وما برحت ذات سلطان علينا ايضاً

ولشد ما يظهر ان كل ما في العالم العلوي ثابت على عهده لم يتغير منذ العصور النائية عصور الفراعنة . وهذه (الشعرى اليمانية) التي كانت وهاجة في فم (الكلب الاكبر) ايام كان كهنة المصريين يرقبون ظهورها من اعالي مراصد منفيس لا يزال يبهر ابصارنا سراجها الذي لا ينطفىء

كم من اجيال خرت للاذقان سجدا في هذا المعبد ، وكم من قلوب واجفة فزعت الى الحظيرة المقدسة في مقصورة السماء ، وكم من كروب جاءت تدعو الآلهة في تفريجها

وبينا يفتنني سحر الفرقة البيضاء ذات العماد المبتورة وجدتني ارتل جملا من قنوت كان على القدماء عزيزاً : —

(يا من هو مفزعنا في ساعات الهموم اذا استحكمت حلقاتها . وملجأنا في ساعات الفرح القوي الذي ينوء به ضعفنا . ايتها الآلهة الكبرى المحبوبة حب خيادة أحيي تضرعنا اليك كما اجبت دعاء المكروبين مثلنا من قبل)

لا بد ان يكون رمسيس الثالث وامينتريس وسائر من شادوا معابد عهنا جاءوا في ليال كهذه الليلة متلطية وضاءة ليوجهوا قلوبهم الى الذي اصطفاهم

وينبغي ان يكون في هذا المكان سبب فوق العصور والاجناس والاديان من عنصر لا يقبل الفناء . من اجل ذلك شعرت بسر اخاذ غير مدفوع لا ادري ما هو يخلص من طنف المعبد وباحاته ومن كل ناحية كانت موضعاً لتأثير ديني اوفيض الهي او وحدة عقيدة في جيل من الاجيال

كنت افكر في ما ينبعث من الجدران والعمد من سلطان على النفوس غيبي بينما اسير الهوينا في الكون الشامل لالحق بالحجيج الذين ذهبوا ينتظرونني في ساحة اوزيريس . وعلى حين فجأة ثبتت في مكاني بين دهشة وعجب اذ لمحت

امرأة تدنو الى ناحيتي في تريث وجلال قادمة من مدخل الهيكل كأنما تنساب انسياباً لا تمشي على قدم يلوح جسمها كله لطيف المستشف، ولم تكن قامتها مفرطة الطول على أنها كانت كلما تدانت بدت للرائي مهيبة متعالية ، في شكل رأسها تلك المخايل الصادقة الدالة على انها مخلوقة للسيادة وتزين غرتها تلك العزعة النافذة التي لا تزين بها الغرر الا سلسلة طويلة من اباء ملوك واتي يجعلها تتادى الزمن خاصة التودد والحسب

كانت ترتدي بجلباب ابيض ليس فيه من شيء من جسمها فضل رقيق النسيج مطرز الحواشي ينحسر عن عنقها ومعاصمها المحلاة بأساور من ذهب وكانت في قدميها نعال ثمينة تهب مشيتها تلك الرشاقة النبيلة التي لا تحاكى، رشاقة النساء المصريات

هي الآن تمر امامي فانزع من روعة الى الوراء اذ عرفت من ذلك الكائن ذي المظهر الخيالي الملامح اللطيفة والخصائص الشريفة والاعين النجل الشبيه سوادها بسواد الليالي المصرية، عرفت محيا الملكة الفتان المصور فوق الجدران في الكرنك في معبد اوزيريس . تلك هي امينتريس صاحبة الامارة الدينية في طيبه مليكة المصريين وسادنة آمون بيدها المعزف الفالي المصور فيه رأس (هاتور) وقد كلل هامتها زهر اللوتس وسطع عرف البخور الطيب من نواحيها تمر امام عينيّ السادرتين قاصدة الى المحراب طيفاً للماضي ومظهراً للخلود مجيداً

ما الذي جاء بها الى هذا المكان في هذه الساعة ؟ . لعلها جاءت تقيم شعيرة من شعائر الدين او تخلو للفكر والاعتبار ، موحدة لا يصل جناحها بعض الاميرات ولا بعض وصائف القصر . ومع تجردها عن حاشيتها المصرية وموكبها الحبشي كانت كأنما تحف بها المحافل ومظاهر التفخيم كما كانت تبدو مرتفة رائعة في الباحة البيضاء لمعبد رمسيس الثالث

كانت تلك الملكة النضيرة تحل من ذلك المكان المقدس الذي كانت سادنة بموطن الف ، وكانت مكللة بكل اكاليل المجد الغابر حتى لشعرت بلذعة الحزن بما وجدتني مغمورة الى جانبها لا يجمعنا شبه ولا تسوّى بيننا مرتبة، على انني مصرية من جيل غير ذلك الجيل جئت املأ بصري وانعش قلبي برأى دمن العظمة السالفة

امينتريس خيالي في ذلك الليل القمري تتصل بعالم الماضي شيئاً فشيئاً وتمتزج

بالوجودات المغيبة ايضاً في حين امتزاجها بكل ما يحيط بها فأراها تتمثل فيها مصر كلها كما احبها . ذلك مرأى كان في النفس غريب الاثر

اتبعتها بصري وهي تصعد الى الرواق الايمن في السلم الصغير المهدم وهنالك وجهت وجهها الى القمر ورفعت ذراعيها متوسلة في بطء وطول . كانت في ذلك الوضع جميلة تأخذ بمجامع القلوب مصورة من شرف مصفى وايمان متأجج ورقة شعرية حتى خيل لي لشدة ما تأملتها انها شعاع منبعث من البدر

كنت جد مستغرقة في احلامي فلم اشعر بادي الامر بمدخل قادم آخر يخر ساجداً لتمثال آمنون . كان طوال مهيباً عليه سيما الجنود . لم المح وجهه فجعلت اسأل نفسي من ذا عسى ان يكون هذا الذي جاء كسنة العصور الماضية يقيم شعائر غامضة الاسرار . قد يكون (نيكتانيبو) أو (توتمس) أو (ساهاركا) أو (شاباكا) كلا ماهو هذا ولا ذاك فقد استدار فجأة فرأيت انهُ رمسيس الثالث لا سواه عرفتهُ بجلبابه الفخم المعلم كما عرفتهُ بتألق حليه العجيبة ثم عرفتهُ بنظره الفولاذي الذي يلمع فيهِ ضياء كل ما ملك نواصيه من الآفاق

ورأيي ان الغزاة الفاتحين يعرفون بذلك السحر الذي ينفثونهُ في الجماهير متى رموها بابصارهم . عرفت رمسيس الثالث بعينيهِ الخلابتين عيني متحكم في عزائم الرجال

عيناه شبيهتان بعيني ابراهيم الذي كانت لهُ نظرات كنظرات نابليون وقيصر لا تعرف الرجفة من ذعر . كان لرمسيس الثالث مظهر (مونتو) أخا غزوات ذا جمال فخم

وبينما كنت انظر ملحة ابصرتهُ يدنو الى ناحية امينتريس وهي تهبط من الرواق قال : سلاماً أيتها المليكة

قالت : أجئت يا صاحب الجلالة تطوف مثلي سهلا هنا ؟

قال : ومن ذا الذي يستطيع مصاصاة لجمال هذه الليلة التي هي على غرار ما سلف في غابر الدهر من لياليا ثم جئت مجيئك وثلج بلقائك صدري . تعالي بنا نذكر عصوراً خواليا . ثم رأيتهما في غرفة العبادة جالسين على حافة بعض الدعائم المبتورة يتناجيان

يقول رمسيس :

(أنت موفورة الحسن بمقدار ما كنت مليكة عظمى ولئن غفل الناس عن

ذكرك — والانسان سريع النسيان — فلن تفتأ مدينة (طيبة) و(سيين) وارض (امينتت) (والدلتا) (ومنفيس) تذكر عهدك المملوء بالمفاخر ولن يبرح سلطانك خالداً لا يزول في كل ناحية من النواحي التي ثبتت فيها اركان الوحدة القومية

أنت حقاً من جرثومة الآلهة وانا معشر جدودك انزهى عما نويه من سيرتك حيث حكمت مصر المقهورة في بلاد الحبش فاتحة بيانكارى)

وما كان احسن الاستماع لذلك الملك الكبير يثني على اميرة من سلالته عرفانا لما تركت في الملك من أثر خطير. وبينما كان القمر يغمرها بشعاعه كان يخيل الي ان قد بعثت حية صفحات من ذلك التاريخ البعيد الفياض بالمفاخر

ان هذه الارض التي لم يخلق مثلها في البلاد قد رفعت من شأن النساء ما لم تعرفهُ روما ولا اثينا فهي جعلت منهن كهنة وملكات و آلهة. اولئك نسوة نهضن بالعظائم وكن من جوهر تتقاصر الاعناق دونهُ وكان لهن فيما حملن من اعباء الحياة نفاذ وكفاية. ما ارجح وزنهن اولئك اللواتي نزلت على حكمهن عصورهن. آه: لو ان نساءنا نساء الشرق عرفن كيف يحتفظن بتلك الهمة الاولى. أذق لهان ما نلقى اليوم من الالم الوجيع لكربة الشرق الشاملة

وازاء هذه النماذج الماثلة ضخمة عديدة تنظم عقداً من عهود منقطعة النظير. قامت صورة التعاسات التي تنوء بها الآن كل واحدة منا بما كسبت ايدينا صورة لا يبلغ الوصف ما تثيره من وخز الاسف

مرت بنا كما يومض الشهاب الثاقب تلك السلسلة الذهبية لربات التاج فيما سلف يتنازعن غاية الجمال في عزة باهرة ما بين اوجه ملكات وشخوص اميرات فلان باحة الهيكل اذ خطرن بها متعاقبات زينة وجمالاً. شهدتهن يجئن الغرفة ذات العماد أولئكن اللواتي كنّ حلية التاج الشرقي الذي لا تسامي التيجان اولئك الجواهر في جيد مصر وبلاد العرب وفارس والترك والهند اللواتي رفعن لاوطانهن ذكراً بما لمع في الخافقين من لألائهن وهنّ: آه — هوتيب — أهمس — تايا — كليوباترا — سيميراميس — زبيده — صبيحه — هاتون — نيلوفر — ماهبيكار — نورمهال — قرة العين — سلطان جهان — جشم آفت

كنّ رسلن جميعاً الى امينتريس ابتسامة هي الدلالة القدسية الخالدة على الود السماوي. كان بعض تلك الصور الشاردة المتعاقبة سراتاً فوق حاجز الساحة

البيضاء يظهر أشد من غيره بياناً وهذه هي وجوه العصر المجيد المصرية. اما التي كانت دون ذلك وضوحاً فهي شخوص الملكات الملهات تبدو لماماً في جوف الهيكل المنير.

ثم رجعت بفتة الى نفسي أسائلها على مضض:

ماذا عسى ان يكون عدد من يعلم في الشرق أسماء ملكات الزمن المجيد الغابر؟ وما عدد من يدري صنيعهن؟ بين من تلقفوا اسماءهن تلقفاً؟. ذلك مع ان النبي (ص) أثنى على زوجه بعلمها وجعل لها شأناً خطيراً. ولقد كان يبدي لبنته مظاهر عطف تنتشر لها النفس رقة ويبين للناس أن لكل من فتاته وامرأته مكاناً في نفسه كريماً

ووجد في تاريخ الاسلام البعيد الاطراف بعد عائشة وفاطمة الزهراء أمثلة من النساء تستحق الاعجاب بيد ان مؤرخي الوقت آثروا ان يحجبوا عليهن ذيل النسيان ليقصروا جهدهم على تراجم ليس لها حاملهم رجال لم يكونوا أهلا لتقدير تلك القطر النسائية المختارة التي لو وثبت قليلاً لحلقت بعيداً في كبد سمائنا الفيروزية

اولئك النسوة اللواتي وهبن لبلادهن نفوسهن غير ضنينات أولئك الملكات اللواتي كن مثلاً حيةً لاوطانهن لم يغلن من حسن الذكر الذي استوجبنه بما قدمت ايديهن الا هذه الاشعة المختلط نورها بظلامها يرسلها ليل من ليالي الصيف بعيةً في اعقاب الشمس الهاوية الى مغربها متألقة رائعة

كنت في غمرة بالغة فلم استطع لتأثري المتزايد تتبع ما كان يتناجى به رمسيس وأميتريس ولم اكن اشعر الا بشيء واحد هو ان ذلك الاطار الخيالي الذي يحف بي قد صار بقوة الحب والاخلاص والارادة حقيقة ثابتة. ان اولئك الذين قضوا حياتهم في خدمة غرض مقدس عندهم قد رجعوا الى معاهدهم الاولى في حضن الهياكل التي أقاموا في الحياة دعائمها ليتفاوضوا في شؤون تأخذ من قلوبهم مكاناً وقد ادنتهم قوة ايمانهم من منازل الآلهة. وعندما تأملت في القوام الاهيف للكاهنة العظيمة وفي بأس الرجولة للفاتح الكبير شعرت بانهما صاغا صورتيهما البديعة في الابدية كما يشاءان

رأيتهما يتواريان في صمت جبالي فيعود هو الى قبة (عجدول) حيث صوره مصورو العصور الخوالي لاعباً الشطرنج بينما تسير هي الى صومعتها اللطيفة

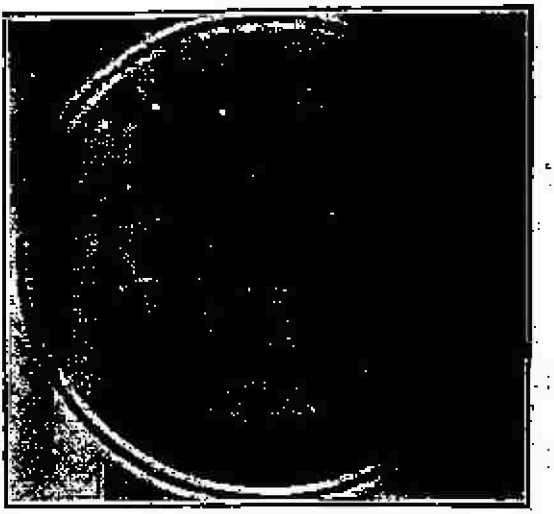

آخر صورة للامبراطورة اوجيني

صورة الامبراطورة في صباها

اقتطف سنة ١٩٢٠

لتوالي القيام بشعائر دينها المقدسة في هذه الليلة الزهراء ليلة البدر كاملاً . هنالك اقبلت على نفسي اسائلها اي ثلاثتنا حقيقة و يا خيال ليت شعري هل تجلي الملأ الاعلى في عالم الظهور هو الحقيقة الثابتة ام انا وحدي ذات الوجود الحقيقي ؟ . تعب الحجيج من انتظاري فغادروا الهيكل قبلي وتبعتهم كأني في حلم ولما سارت بنا العربات احسست بأني احمل معي تذكاراً لا يستطيع شيء ان يمحوه فان الذي رأيته وسمعته منذ الليلة لا يدركه النسيان

كانت السواقي تدور في مزارع القمح والنول المتباعدة الاطراف كمهدها داعماً صداحة شاكية، وكانت اشجار البرتقال المزروعة في القرى الحافة بنا تعطر بأريجها موكبنا الهيلي بينما كانت التلال الضخمة الرابضة تنظر الينا اذ تمر بها كما شهدت منذ الاحقاب المتنائية وهي جامدة لا تحرك ساكناً امواج الخضم الانساني تتدافع غير متناهية

طيبه في ٤ ابريل سنة ١٩٢٠ قدريه حسين

الامبراطورة أوجيني

نعت التلغرافات في ١٤ يوليو الماضي ملكة من اشهر ملكات العالم واشدهن علاقة بتاريخ اوربا الحديث في القرن التاسع عشر وهي اوجيني ارملة نبوليون الثالث امبراطور الفرنسويين

ولدت في غرناطة في اعمال اسبانيا في ٥ مايو ١٨٢٦ فعمرت ٩٤ سنة . وكان والدها الكونت منتيجو من اعيان اسبانيا ووالدتها اميركية من سلالة اسكتلندية وقضت صباها في مدريد ثم انتقلت مع والدتها وشقيقتها الى باريس سنة ١٨٣٤

ولما تقلد لويس نبوليون رآسة الجمهورية الفرنسوية كانت اوجيني ووالدتها تكثران من التردد الى قصر التويلري لحضور المآدب والحفلات الراقصة التي كان الامير الرئيس يحييها فتعرفت به وسحرته بحسنها وعذوبة حديثها وذكائها . ولم يكد ينادي بالامبراطورية حتى دعاها الى ان تكون زوجته واحتفل بقرانهما احتفالاً فخماً في ٣٠ يناير ١٨٥٣ . وبعد ذلك بثلاث سنوات رزقا وحيدهما الذي لقب البرنس امبريال